

أنا ماري شيميل أعظم من أنصف الإسلام

أنا ماري شيميل، أعظم المستشرقين الذين أنصفوا الإسلام، ودرسوه بموضوعية ودون انحياز ضده.

كانت تربطني بها علاقة روحية، بدأت مع أول لقاء معها، في باكستان، وكنت في صحبة الإمام الأكبر الدكتور محمد سيد طنطاوي شيخ الأزهر، وهناك علمت بوجودها فسعيت إلى الاتصال بها لتحيتها، فسألتني إن كان من الممكن أن تلتقي بشيخ الأزهر لأنها معجبة بآرائه السمحة المعتدلة، والتقينا ودار حوار طويل حول الحرية الدينية في الإسلام، وسماحة الإسلام مع أصحاب الديانات الأخرى ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ و﴿فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ﴾.. وامتد الحديث إلى مكانة المرأة في الإسلام، والاتهامات الظالمة للإسلام بأنه يظلم المرأة، ويعادي الديمقراطية وحقوق الإنسان.. إلى آخر هذه الاتهامات التي تتردد بين المستشرقين والسياسيين. وأذكر أنني سألتها: هل وجدت في دراساتك للإسلام أنه دين يدعو إلى الإرهاب؟.. ولن أنسى منظرها وهي تستمع إلى سؤالي، وقد انتفضت من مقعدها وقالت باللغة العربية وبصوت عال: معاذ الله!

وشعرت بعد هذه المقابلة أن هذه الأستاذة العظيمة تستحق الاحترام. بعد ذلك ذهبت في رحلة إلى ألمانيا بصحبة الإمام الأكبر أيضا، وكان برنامجه يتضمن حضور لقاء في المركز الإسلامي في بون وكانت هي عاصمة ألمانيا قبل أن تنتقل العاصمة إلى برلين - وفي هذا اللقاء فوجئت بحضور الدكتورة أنا ماري شيميل، وقالت: إنها جاءت سيرا على الأقدام لأنها لم تجد سيارة أو (تاكسي) وخشيت أن تتأخر عن الموعد، وبعد أن ألقى شيخ الأزهر حديثه، جلسنا معا في صالون ودار حوار شائق حول دراساتنا عن التصوف وعن المدارس الفقهية الإسلامية، وقالت: إنها عائدة لتوها من إيران، حيث دعيت لإلقاء محاضرات في الجامعة في طهران وأنها كانت أيضا في باكستان وتركيا لإلقاء سلسلة محاضرات عن الإسلام.

وحين عدنا إلى القاهرة اتصلت بالدكتور محمود حمدي زقزوق وزير الأوقاف واقترحت عليه أن يدعوا لزيارة القاهرة والالتقاء بأستاذة الأزهر ومفكرين إسلاميين في مصر، فقال لي: إنه يعرفها جيدا، ويعرف مكانتها العلمية، وهي صاحبة مدرسة في الاستشراق ولها تلاميذ كثيرون هم الآن من كبار أساتذة الدراسات الإسلامية في الجامعات الألمانية، وقال: إنه سيدعوا لحضور مؤتمر المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، وحضرت فعلا إلى القاهرة ولقيت التكريم من شيخ الأزهر ومن وزير الأوقاف وهو أصلا أستاذ للفلسفة الإسلامية، وحصل على الدكتوراه من ألمانيا، ويجيد اللغة الألمانية، ومعروف جيدا في الأوساط العلمية هناك، وكانت هذه الزيارة فرصة لأدعوا للالتقاء بمجموعة كبيرة من الصحفيين والكتاب من مجلة (أكتوبر) وقضينا سهرة طويلة في حوار ممتع نشرنا ملخصه في مجلة (أكتوبر)..

وامتدت صداقتنا، والتقينا مرة أخرى في زيارة ثانية لها للقاهرة، وكنت على موعد للقائها في ألمانيا في صيف ٢٠٠٤، ولكن الله لم يشأ أن يتحقق ذلك.



ومن حسن حظي أني وجدت الباحث المصري الدكتور ثابت عيد في جامعة زيورخ في سويسرا وثيق الصلة بالدكتورة أنا ماري شيميل، وتفضل بإرسال مجموعة من دراساته عنها وترجماته لأعمالها إلى فكان ذلك جميلا منه لأنني تعرفت أكثر على عظمة الدور الذي تقوم به هذه الأستاذة العظيمة خاصة أن ما تكتبه وما تقوله له تأثير على كثير من المستشرقين والألمان بصفة خاصة، ويمتد تأثيرها إلى بقية دول أوروبا، لأنها دائمة السفر واللقاء المحاضرات في الجامعات الأوروبية الكبرى.

وفي ١٨ يناير ٢٠٠٢ تابعت الاحتفال الكبير الذي أقيم لها في مؤسسة معهد جوته في بون بمناسبة بلوغها سن الثمانين في العاشر من شهر أبريل ٢٠٠٢، وباعتبارها أكبر متخصصة في العلوم الإسلامية، واللغات العربية والشرقية وتعمل أستاذة في جامعة بون، وحائزة على جائزة السلام للناشرين الألمان التي تعتبر أهم الجوائز الثقافية والفكرية المرموقة التي تقدم كل عام إلى إحدى الشخصيات الثقافية والعلمية ذات المكانة الخاصة..

وفي هذا الاحتفال قامت بإلقاء محاضرة موضوعها (مظاهر وأركان الإسلام) وتجمع عدد كبير من الباحثين والمفكرين والكتاب للاستماع إليها، خاصة بعد أن أصبح الإسلام مركز اهتمام السياسيين والمثقفين ورجال الإعلام في ألمانيا وفي العالم بعد الهجومات الإرهابية على مركز التجارة العالمي في نيويورك ووزارة الدفاع الأمريكية في واشنطن في ١١ سبتمبر ٢٠٠١، والصورة السلبية التي أبرزتها وسائل الإعلام الغربية للإسلام والمسلمين، وحين قدمها الدكتور فالتر نوفاك، سفير ألمانيا السابق في عدة عواصم عربية قال: إن هذه الأستاذة الكبيرة هي أفضل من يوضح الصورة الحقيقية للإسلام

ويشرح العلاقة بين الإسلام والديانات الأخرى. وتحدثت الدكتورة أنا ماري شيمل عن بداية ظهور الإسلام، وسيرة الرسول محمد - صلى الله عليه وسلم - ونضاله من أجل نشر العقيدة الإسلامية، واضطهاد قريش له ولأتباعه من المؤمنين، ثم هجرته إلى المدينة المنورة، وانتصاره على المشركين، ومولد الدولة الإسلامية، وانتشار الإسلام في العالم القديم. ثم تحدثت عن المصادر الرئيسية للدين الإسلامي وهي القرآن، والسنة والإجماع، والقياس، وأركان الإيمان في العقيدة الإسلامية وهي: الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر دون تفرقة بين أحد من الرسل، وقامت بشرح دقيق وتفصيلي لكل ركن من هذه الأركان، وتوقفت طويلا حول عقيدة (الله الواحد الأحد) والإيمان بالملائكة، ودور جبريل في نقل الوحي إلى الرسول - صلى الله عليه وسلم - وشرحت شرحا كاملا الآية: ﴿أَقْرَأْ بِآسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ وبعض الآيات الأخرى، وأشارت إلى مدى صعوبة ترجمة القرآن إلى لغات أخرى، لأنه بالترجمة يفقد بعض الجلال الذي يشعر به كل من يقرؤه باللغة العربية، كما يفقد البلاغة المعجزة في صياغته، وعندما شرحت (الإيمان بالرسول جميعا) باعتباره ركنا أساسيا من أركان العقيدة الإسلامية، توقفت طويلا بالشرح لما جاء في القرآن من اعتراف وتكريم للنبي موسى وللمسيح عيسى بن مريم - عليهما الصلاة والسلام - ورسالتهما السماويتين، وعددت سلسلة الرسل من آدم إلى محمد - صلى الله عليه وسلم - خاتم الأنبياء، مع مقارنة موجزة بين الإسلام والمسيحية، وتحدثت عن احتفال الدول الإسلامية بعيد ميلاد المسيح، ومولد الرسول محمد - عليهما الصلاة والسلام -، كما تحدثت بالتفصيل عن سورة مريم وما فيها. وشرحت ركن (الإيمان) في الإسلام فقالت: إنه الإيمان بالله، وبالكتب السماوية وتشمل القرآن وما قبله من كتب، والإيمان باليوم الآخر، والبعث والحساب و الجنة والنار، وقارنت بين مفهوم الجنة لدى المسيحيين والمسلمين، وفكرة القضاء والقدر خيره وشره، ثم انتقلت إلى مسيرة الدولة الإسلامية بعد وفاة الرسول - صلى الله عليه وسلم -، وشرحت الفروق بين السنة وبين الشيعة وآل البيت، والأئمة، والأوضاع السياسية والاجتماعية في الدول الإسلامية في الوقت الحاضر، وفي النهاية أجابت بسهولة وعمق عن سيل من الأسئلة.

وهكذا كانت أنا ماري شيمل دارسة بموضوعية للإسلام، حريصة على أن تنظر إليه بعين العالم، وبالمنهج العلمي دون تحيز أو أحكام مسبقة، ولذلك كانت موضع تقدير كبير عند كل من يعرف قدرها في العالم الإسلامي، وإن كان اسمها لم يتردد في مصر إلا مؤخرا.

وأنا ماري شيمل ولدت عام ١٩٢٢ في مدينة في وسط ألمانيا اسمها (إيرفورت) ودرست اللغة العربية - قبل أن تختار التخصص في تاريخ العلوم، واللغات الشرقية - على يد المستشرق الألماني الدكتور (ريتشارد هارتمان) في برلين وحصلت على الدكتوراه في الاستشراق عن رسالة موضوعها (القضاء الإسلامي في مصر في القرون الوسطى) وبعد الحرب العالمية الثانية واصلت دراستها في

الآداب العربية، والتركية، والفارسية، وحصلت على درجة أستاذ (بروفيسور) في منتصف الأربعينات، ثم حصلت على دكتوراه ثانية في أوائل الخمسينات، وعملت في تدريس الشريعة الإسلامية في جامعة أنقره بتركيا، وفي جامعة هارفارد بالولايات المتحدة، ثم احتلت كرسي الأستاذية في قسم العلوم الإسلامية واللغات الشرقية في جامعة بون وهي أعرق الجامعات الألمانية، وبعد سنوات تفرغت للكتابة والتأليف، وإلقاء المحاضرات، ونشرت أبحاثها في المجالات العلمية المتخصصة في الاستشراق حول موضوعات الفلسفة الإسلامية، والمعتزلة، والصوفية، كما قامت بإنشاء مؤسسة خاصة لتقديم المنح الدراسية للعلماء والطلبة المسلمين، بالتعاون مع جامعة بون، وفي عام ١٩٩٥ حصلت على أكبر جائزة ثقافية وفكرية في ألمانيا هي (جائزة السلام).



ولم يسبق أن لقيت باحثة ألمانية في الإسلام مثل هذا الاهتمام الواسع خارج ألمانيا مثل أنا ماري شيميل، فقد ترجم معظم أعمالها إلى عدة لغات، وصدر أكثر من ٢٠٠ كتاب عنها وعن أبحاثها وأفكارها، وهي معروفة عالميا ومقروءة باللغات الإنجليزية والفرنسية والفارسية، والتركية، والأوردو، والعربية، وترجمت بعض أعمالها أخيرا إلى اللغة الإندونيسية، وفي عام واحد هو عام ٢٠٠٠ قامت برحلات إلى إحدى عشرة دولة في أوروبا وأمريكا وآسيا وفي دول الخليج، وكانت تشرف على برنامج تليفزيوني عن الإسلام في ٨ حلقات عرضه التلفزيون الألماني وعرض أيضا في بعض الدول العربية.

وخلال نصف قرن كانت أنا ماري شيميل نموذجا للباحثة المخلصة للحق والحقيقة في دراساتها للعقيدة والشريعة والعلوم الإسلامية، وظلت تعمل بنشاط كبير على مد جسور التفاهم والتقارب بين العالم الإسلامي وبين الغرب المسيحي، وفي عام ١٩٩٥ تعرضت لأزمة شديدة بسبب تعبيرها عن رأيها في قضية سلمان رشدي، فقد أثارت رواية (آيات شيطانية) التي كتبها سلمان رشدي البريطاني الجنسية الهندي الأصل، والذي كان مسلما وارتد، ووجه في هذه الرواية شتائم مفرجة للقرآن، والوحي، وإلى الرسول - صلى الله عليه وسلم - وزوجاته وبناته، وأثارت الرواية الغضب الشديد في العالم الإسلامي، وأصدر الخميني فتوى بإهدار دم سلمان رشدي، واستغل الإعلام في جميع الدول الأوروبية وأمريكا هذه الفتوى للهجوم على الإسلام والمسلمين، لعدم اعترافهم بحرية الرأي. وفي عام ١٩٩٥ كانت أنا ماري شيميل تتسلم أكبر جائزة ألمانية، وفي حفل تكريمها قالت: إنها تستطيع أن تفهم لماذا شعر المسلمون بالاستياء تجاه هذه الرواية، وكانت هذه العبارة سببا في تعرضها لهجوم لم يسبق له مثيل، ولا يليق بمكانتها العلمية، فقد عاملتها جامعة بون بقسوة، واتهمتها بأنها بهذا التصريح تؤيد فتوى الخميني بالقتل. وتعهد المنتقدون لها انتهاز الفرصة لتوجيه الاتهامات إليها وإلى الإسلام.. بل وتعرضت للتشكيك في نواياها وقيمة أعمالها، وأصبح

الحوار الساخن في طول ألمانيا وعرضها يدور حول البروفيسور أنا ماري شيميل: هل تستحق الجائزة الكبرى التي حصلت عليها أو لا تستحقها؟ وظهرت سحابات الشكوك حول الأستاذة العظيمة. وحين سألتها عن هذه الفترة قالت باقتضاب وملامح وجهها مليئة بالحزن والمرارة: لقد كان وقتا صعبا.. وأرجوك.. لا أحب الحديث عن تلك الفترة. وهكذا كانت إجابتها عن كل من كان يسألها عما حدث لها في بلد الديمقراطية، وحرية البحث العلمي وحرية الرأي.. وامتد الهجوم عليها إلى بلاد الديمقراطية الأخرى: أمريكا ودول أوروبا.



كان هدف هذه الأستاذة العظيمة دائما أن يتفهم الغرب حقيقة الإسلام، وفي رأيها أن الإسلام أكثر الديانات عرضة للهجوم، وللأحكام المسبقة، ولذلك كانت تتحمل بصبر وابتسام هادئة نصيبها من الهجوم هي الأخرى بسبب دفاعها عن الإسلام، وتتحمل الأسئلة والملاحظات الجارحة التي وصلت إلى حد الاتهامات.

أجابت عن سؤال حول السبب في اهتمامها بالإسلام فقالت: إن ذلك يعود إلى اهتمامها منذ صباها بالشرق وسحره وحضارته، وأنها كانت في طفولتها تنجذب إلى الكتب التي تقع في يدها عن الشرق وتقرأها بشغف، وكانت معجبة بشكل الحروف العربية، وترى فيها جمالا يجذبها، وتحاول تقليدها ورسمها. وعندما بلغت الخامسة عشرة من عمرها بدأت تتعلم اللغة العربية على يد أستاذ معروف لم تكن دروسه تقتصر على اللغة العربية وقواعدها.. بل كان يلقي المحاضرات عن تاريخ الحضارة في العالم الإسلامي، وتقول: الفضل يرجع إلى تشجيع أبي وأمي في هوايتي هذه، وكانت والدتي أشد الناقدين لأعمالي حتى توفاه الله في عام ١٩٧٨.

إنتاج أنا ماري شيميل المنشور بلغ أكثر من ثمانين مجلدا عن تاريخ الشرق والإسلام، وكانت لها اتصالات في جميع أرجاء العالم الإسلامي، وبالإضافة إلى ذلك ترجمت الكثير من النثر والشعر من اللغات العربية والفارسية والتركية إلى اللغة الألمانية، وكانت تقول: إن أعمالي قصة حب كبيرة بيني وبين الشرق الإسلامي.. وفي نفس الوقت كانت تؤكد وتكرر: أنا باحثة فقط وليس لي شأن بالسياسة، فأنا ملتزمة التزاما شديدا بالحياد السياسي.. بل أنا خارج الساحة السياسية تماما، ولا أعرف الكثير عنها، ولا أستطيع الحديث عن شأن من الشؤون السياسية. ولكنها مع ذلك واجهت انتقادات من باحثين غربيين ومن فئات إسلامية، وظلت محتفظة بهدونها ووقارها العلمي وبدعوتها إلى التسامح، كما ظلت إلى آخر يوم في حياتها على موقفها من الدعوة إلى السلام بين الشعوب وبين أبناء الوطن الواحد، وتقول: إن السلام يساعد الناس على الشعور بالأمل والقوة. وتدافع عن الدين الإسلامي، وتقول: إن الإسلام أضاف إلى الدنيا الكثير من المبادئ والقيم النبيلة،

وساعد على تقدم العلوم والفنون، ويحز في نفسه أن يتعرض الإسلام علنا، وبصورة مستمرة، ومتعمدة في أغلب الأحيان، إلى أحكام مسبقة غير دقيقة تصوره على أنه دين شير!

ولم تقتصر البحوث التي قامت بها أنا ماري شيمل في رحلة عطائهما العلمي التي بدأت عام ١٩٣٧ على تبادل الآراء مع كبار الباحثين في التصوف الإسلامي، ولكنها كانت تلتقي بالمسلمين العاديين في كل بلد تزوره، وتستمع إليهم، وتتعرف إلى آرائهم وعقائدهم وعاداتهم.

وقالت: في عام ١٩٤٢ كتبت رسالة الدكتوراه، وفي عام ١٩٤٦ أنهيت رسالتي التي منحتني بها الجامعة درجة بروفييسور، وهذه الرسالة لم تنشر مع الأسف الشديد، وهي عن حضارة الماليك في مصر، وهذه مرحلة تاريخية طالما وجدت نفسي مشدودة للعودة إليها، وتسلط الضوء عليها، ثم اكتشفت ابن خلدون فترجمت إلى الألمانية بعض فصوله من مقدمته الشهيرة.. أما الذي يوجب روحى ويسيطر على نفسى فهو الشعر.. الشعر العربى.. والشعر الفارسى أكثر.. وعلى الأخص الشعر الفارسى الصوفى، ولذلك فإن أول كتاب نشر لى كان دراسة عن لغة التصوير الخيالى فى شعر جلال الدين الرومى (١٢٠٧ - ١٢٧٣) وهذا الشاعر كتبت عنه كثيرا، ولى عدة كتب باللغتين الألمانية والإنجليزية فى دراسة أفكاره وأعماله، وترجمت الكثير من أعماله إلى اللغة الألمانية، وبدأت اهتمامى بترجمته منذ كان عمرى ثمانية عشر عاما ولم تمر فترة طويلة حتى استحوز الشاعر الكبير محمد إقبال، على فكرى، وهو الأب الروحى لدولة باكستان الحديثة، وتوفى عام ١٩٣٨، وقد تفرغت لإعداد كتب عديدة عنه، ونقلت ديوانه (رسالة الشرق) وهو فى الرد على الكاتب الألمانى المعروف جوته الذى كتب (الديوان الشرقى الغربى). ونقلت لإقبال أيضا كتاب (سير الأفلاك) شعرا إلى اللغة الألمانية، ونثرا إلى اللغة التركية. ووضعت عدة مؤلفات عن شعراء عظام من شبه القارة الهندية الباكستانية من أمثال الصوفى الكبير (ميررد) المتوفى عام ١٧٨٥، وشاعر اللغة السنديّة الكبير (شاه عبد اللطيف) المتوفى عام ١٧٥٢، كما قمت بإعداد بحوث نشرتها فى كتب عديدة عن التاريخ الأدبى والسياسى للمسلمين فى شبه القارة الهندية الباكستانية. ونقلت إلى الألمانية كثيرا من أبيات الشعر عن الفارسية والأوردية، ولغة السند، ولغة الباشتو. وقمت بتأليف كتب عن تركيا، وترجمت أشعارا تركية، كما ترجمت رواية تركية إلى الألمانية. ومع كل ذلك ظل الحب لفن الكتابة والخط العربى فى قلبى، مما جعلنى أخصص سنوات لدراسته ومعرفة أسرارها، وذهبت من أجل ذلك إلى متحف المتروبوليتان فى نيويورك إلى أن تمكنت من معرفة الكثير من أسرارها الجميلة، وبعد أن تقدمت برسالة الدكتوراه الثانية فى عام ١٩٥١، عن تاريخ الأديان، وقعت أسيرة هذا الموضوع (تاريخ الأديان) وخاصة علم الظواهر الدينية، حيث حاولت الاعتماد على ذلك فى فهم الإسلام.



يقول الكاتب البريطاني بيتر راند راسل في بحثه عن أنا ماري شيمل: إن أبرز مؤلفاتها جميعا كتاب (الأبعاد الصوفية للإسلام) وهو خلاصة لجوهر أعمالها عن التصوف والصوفية في الإسلام.. ويقول أيضا: إن أنا ماري شيمل بعيدة كل البعد عن التطرف الديني، وهذا ما تؤكدته كتاباتها، ومحاضراتها، ولذلك كانت حريصة على الابتعاد عن الحديث عن الإسلام السياسي، وظلت ترفض كل المحاولات التي كانت تسعى إلى جرّها للاشتراك في النقاش الدائر حول الإسلام السياسي، وجماعات الإسلام السياسي، وتقول: إن هذا النقاش يسيء إلى صورة الإسلام، فنحن حين ندرس مبادئ وقيم الإسلام نجد حقيقته، وحين ننحرف إلى الحكم على الإسلام بما تقوله وما تفعله جماعات الإسلام السياسي فسوف نجد صورة تسيء إلى الإسلام، وهذه الصورة ليست للإسلام، ولكنها من صنع هذه الجماعات، فلماذا أترك الأصل وأجري وراء الصورة غير الصحيحة؟

وهذا هو السبب في أنها بالرغم من اهتمامها بالإسلام في سن مبكرة جدا، منذ كانت في الخامسة عشرة من عمرها، وظلت تبحث وتكتب وتحاضر عن كل جوانب الإسلام، فإنها مع ذلك لم تشارك في أي نشاط سياسي من أي نوع حتى في داخل ألمانيا ذاتها، ولم يكن للسياسة أي تأثير على أفكارها ومواقفها، وظلت محتفظة بهذا الموقف العلمي الحيادي حتى عندما انتدبتها جامعة هارفارد الأمريكية للتدريس في قسم الثقافة الهندية والإسلامية.

حصلت أنا ماري شيمل على جوائز تقدير عديدة من أنحاء العالم يصعب حصرها، منها وسام الاستحقاق الكبير، أعلى وسام ألماني في عام ١٩٨١، وظلت تعمل بنشاط، تحسد عليه، دون أن تشكو من التعب حتى بعد أن تجاوزت الثمانين من عمرها، وكانت تقول: أريد متابعة أسفاري، ولقاء المفكرين والعلماء، والقاء المحاضرات، وترجمة الكتب والأشعار في الموضوعات الخاصة بالإسلام حتى آخر لحظة من عمري. وهذا ما فعلته.



وفى المحاضرة التي ألقته بمناسبة تكريمها وحصولها على جائزة السلام قالت: إن تفهم الثقافات الأجنبية والتسامح معها يجب أن يكون جزءا من السياسة الألمانية. ولقد تعرضت لحملة شديدة الضراوة كانت تبدو وكأنها تهدف إلى تقويض الرسالة التي خصصت حياتي من أجلها، وهي تحقيق التفاهم بين الشرق وبين الغرب، ومع ذلك لم تدفعني هذه الحملة إلى الانزواء، لأنني أشعر بالالتزام بأن يكون عملي وعمل المستشرقين هو السعي إلى الحوار الهادئ مع جميع نوى النوايا الحسنة في العالم الإسلامي. ورسالتى أيضا التي قضيت نصف قرن من عمري في أدائها لكي أتعلم أن منهج العلم مختلف عن منهج الصحافة والسياسة، وإن كان من المفروض أن يجمع بينهما الحرص على حرية الكلمة، وقد أعلنت أنني أرفض الفتوى الخاصة بسلمان رشدي، وسوف أسعى بأسلوبى الخاص إلى الدفاع عن حرية الرأي وحرية الكلمة.

وقالت: إننى أدرك أن الشعر هو (اللغة الأم للجنس البشرى) التى تربط بين الشعوب، لأنه من أهم مكونات جميع الحضارات، فالشعر هو وسيط السلام، وقد اختلفت كثيرا علاقات الغرب مع العالم غير الغربى، فقد تابع الغرب بذعر تقدم المسلمين فى حوض البحر الأبيض فى القرنين الثامن والتاسع، ولكن الغرب فى ذلك الوقت أخذ عن العرب فى الأندلس أصول العلوم الطبيعية المعروفة اليوم، وظلت مؤلفات الرازى، وابن سينا، المراجع المعتمدة فى الطب فى أوروبا حتى مطلع العصر الحديث. وأثمرت كتابات ابن رشد مناقشات فى اللاهوت مهدت الطريق إلى عصر التنوير فى أوروبا. وساعد المترجمون فى طليطلة على نقل التراث العلمى إلى أوروبا. وكان اليهود والمسيحيون والمسلمون يتعايشون فى سلام فى ظل الحضارة الإسلامية، ويعملون على نقل العلوم العربية إلى بلاد الغرب. وقد علم (لول الكاتالونى) احترام الأديان بعضها بعضا، والحوار بينها من أجل السلام، ثم كان الحصار التركى لعاصمة النمسا فيينا عام ١٥٢٩ وما تبعه من مجازر سالت فيها الدماء أنهارا، غير أن العالم الغربى تعرف فى ذلك الوقت إلى الحياة فى الشرق من خلال تقارير الرحالة والتجار. وصدرت الترجمة الفرنسية الأولى لروايات ألف ليلة وليلة فى مطلع القرن الثامن عشر، فعرفت أوروبا سحر الشرق، والمغريات الحسية، وكان ذلك مصدر إلهام لأجيال من الشعراء، والرسامين، والموسيقيين. كما ساعدت الدراسات العربية والإسلامية والهندية على إثراء عصر التنوير فى أوروبا، وأصبحت جميعها تخصصات مستقلة فى تاريخ العلوم. وكانت الأعمال العلمية والترجمات من العربية هى الباعث على ظهور الشعر الاستشراقى فى اللغة الألمانية الذى يحتل (جوته) مكان الصدارة فيه، خاصة ديوانه (الديوان الشرقى) بما فيه من تعليقات وحواش قام فيها بتحليل الحضارة الإسلامية تحليلا مازال صالحا حتى اليوم، كما نشر (روكرت) عام ١٨٢٠ بعد صدور ديوان جوته بعام واحد-قصائده الأولى المستوحاة من الشعر الفارسى، وكان الألمان يستحسنون سماع الأشعار التركية.

وقالت: نحن لا نتلقى من وسائل الإعلام. ما يضيف إلينا معرفة جديدة، ولكن الإعلام يقدم لنا كل يوم صورة للعالم تملأ نفوسنا رعبا وقلقا، فهل نستطيع أن نكون من الإعلام صورة إيجابية حقيقية عن الحضارة الإسلامية، وهى صاحبة فضل علينا؟ إن الحضارة الإسلامية تبدو غريبة على معظم الأوروبيين اليوم، لذلك فإنهم يزعمون أن الحضارة الإسلامية لم تعرف أبدا الإصلاح أو التنوير! ولذلك رفض (جاكوب بوركهارت) هذه الحضارة الإسلامية منذ قرن من الزمان رفضا باتا وقال: إن هذه الحضارة غير قادرة على التغيير، وكثير ممن يسيئون فهم الحضارة الإسلامية لا يدركون قيمة الانجازات الحضارية والثقافية فى العالم الإسلامى من غرب أفريقيا حتى إندونيسيا، وما فى الحضارة الإسلامية من قدرة على العطاء والنمو بأساليب مختلفة عن الأساليب الغربية، ولكنها تتفق فى أساس مشترك، هو الإيمان بالله الواحد الأحد.



وقالت أيضا: إنه يكاد يكون مستحيلا في هذا العصر التعرف على الجوانب الإيجابية للإسلام في الحياة اليومية، لأننا في عصر الطوفان الإعلامي الغربي، وتغمرنا نشرات الأخبار المتتالية الموجهة إلينا بأسلوب الإعلانات التجارية. ولذلك لا نتكمن من التعرف على الجوانب المتعددة والإيجابية في الإسلام.

وقالت: إن المثل القائل (الإنسان عدو ما جهل) ليس مثلا خاصا باللغة اليونانية، فهو معروف في اللغة العربية أيضا. ويروي الشاعر الكبير جلال الدين الرومي الذي عاش في القرن الثالث عشر الميلادي في كتاب ألفه نشر بالغة الفارسية (أن صبيا شكا إلى أمه أنه يرى كائنا أسود فيصاب بالرعب في كل مرة، فنصحته أمه بأن يخاطب هذا الكائن المخيف لكي يعرف من طريقة إجابته طبيعته وشخصيته، وبذلك يحدد كيف يتعامل معه)، والمعنى الذي أراد جلال الدين الرومي أن يقوله هو: أن (الكلمة) هي التي تدل على شخصية المتكلم، كما تدل كعكة اللوز بما فيها من يأكل منها.

وفي القرآن ﴿الْم تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ﴾ (سورة إبراهيم آية ٢٤).. كما أن في معظم الديانات أن الكلمة قوة خالقة وحاملة للوحي، سواء كانت كلمة الله التي أصبحت لحما ودما، كما حدث في خلق المسيح - عليه السلام - أم كلمة الله التي أصبحت في الإسلام قرآنا.. فالكلمة هي الأمانة التي حملها الإنسان، وعليه أن يرهاها، ولا يجوز له أن يحط من شأنها، أو يقلل من قدرها، أو يحرف معناها، أو يقتلها، كما يحدث غالبا في هذا الزمان.. لأن الكلمة لها طاقة تفوق تقديرنا لها. ومسئولية الشاعر الكبرى، أن يراعى سلطان الكلمة. ومسئولية المترجم أيضا أن يحفظ للكلمة معناها برفقة، فإن خطأ طفيفا في الترجمة قد يؤدي إلى سوء فهم كبير!

والعرب القدماء كانوا يعتقدون أن كلمات الشاعر لها تأثير لا يقل عن فعل السهام، ولذلك كان كل حاكم دكتاتور يستخدم الشعراء ليعلموا عن أمجاده وانتصاراته، وهذا الدور المهم للكلام المنظوم في الحضارة الإسلامية يفوق - بما لا يقاس - مثيله في الحضارة الغربية حتى يومنا هذا. فإذا كنا نهتز للموسيقى، فإن المسلم يهتز حين يستمع إلى ايقاع اللغة. وتقول: لقد عرفت استانبول عن طريق الشعر، حين اطلعت على قصائد الشعراء الأتراك التي نظمها طوال القرون الخمسة الماضية في هذه المدينة الساحرة. في كل ركن فيها، وجعلتني هذه القصائد التي يتردد صداها في باكستان أزداد شغفا بحضارة الإسلام. وقد تعرض أحد طلابي في جامعة هارفارد إلى مأساة، إذ كان ضمن الرهائن الأمريكيين في طهران، فلما تحدث إلى حراسه الإيرانيين وأنشدتهم بعضا من الشعر الفارسي لجلال الدين الرومي وحافظ الشيرازي وإقبال تغير موقفهم منه، ونشأت بينه وبينهم لغة مشتركة ساعدت على تجاوز الاختلاف الأيديولوجي بين الطرفين.. لذلك فإنني أميل إلى رأي (هرد) الذي قال: لاشك أننا نتعرف بالشعر على العصور، وعلى الأمم بصورة أعمق مما نتعرف عليها بالأساليب المضللة الفجة في التاريخ السياسي أو العسكري.

هذه قطرة في بحر هذه المستشرقة العظيمة.. التي ذهبت.. وتركت عصر المحبة والإنصاف للإسلام والمسلمين.

وهناك الكثير جدا مما يقال عنها: لكي نعرفها.. ونضعها في مكانها اللائق على رأس قائمة غير المسلمين الذين قالوا كلمة حق عن الإسلام.

ولقد سار في جنازة أنا ماري شيميل يوم الثلاثاء (٤ فبراير ٢٠٠٣) عدد كبير من المسلمين، كان في مقدمتهم الدكتور محمد زكي اليماني وزير البترول السعودي الأسبق ومعه مجموعة من المفكرين جاءوا من أنحاء العالم الإسلامي ليعبروا عن تقديرهم لنزاهة وموضوعية هذه المستشرقة العظيمة التي تفرغت لأكثر من نصف قرن في إعداد الدراسات الأكاديمية، والكتابة في المجالات العلمية، وإلقاء المحاضرات في أنحاء أوروبا وأمريكا لتقديم الإسلام للغرب بما يستحقه من الاحترام.

في كل زيارة لها إلى القاهرة كانت تؤكد قائلة: إن شغفي الأكبر بالحضارة الإسلامية بدأ منذ طفولتي ويزداد عمقا كلما تعمقت في دراسة التراث الفكري والشعري والوصفي، وهذه الثروة الروحية والعلمية الهائلة التي تركها شيوخ وعلماء الإسلام.

وحين زارت مجلة أكتوبر كان حديثها يدور حول الظلم الذي يتعرض له الإسلام على يد من لم يحسنوا دراسته، للإسلام - كما استخلصت من دراساتها - دين يحترم الحرية الدينية والفكرية، والكرامة الإنسانية، ويدعو إلى العمل وإعمار الكون، كما يدعو المسلمين إلى أن يعيشوا الحياة ولا يعزلوا عنها، ويعملوا لدينهم يعيشون إلى الأبد، ويعملوا في نفس الوقت لآخرتهم كأنهم يموتون غدا، وهذه هي قمة الحكمة على لسان الرسول - صلى الله عليه وسلم -.. وقالت: إن الإسلام يحترم المرأة - على عكس ما يردده البعض - يكفي قول الرسول - صلى الله عليه وسلم -: إن الجنة تحت أقدام الأمهات، وكل امرأة هي أم أو ستكون أما! وقالت أيضا: إن الإسلام بريء من الإرهاب على النحو الذي يحاول به البعض الربط بين الإسلام وبين الإرهاب والادعاء بأن في الإسلام دعوة لإرهاب الآخرين.

وقالت أيضا: لقد بدأ اهتمامي بالإسلام وبالشرق وثقافته عندما قرأت حديثا نبويا يقول: (الناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا) ولم أكن أعرف أنه حديث نبوي، فتعلمت اللغة العربية.. وقد عملت أستاذا في جامعة بون في ألمانيا، وأنقرة في تركيا، ولاهور في الهند، ثم في جامعة هارفارد الأمريكية، ولكنني في أمريكا لم أشعر بالألفة، ولذلك كنت دائما أعتبر فترة إقامتي في أمريكا غربة غريبة كما يقول الصوفية، أما في بلاد الشرق فإنني أشعر دائما بالراحة النفسية وأجد فيها نوعا من السمو الروحي لا يعرفه إلا من يمتلئ قلبه بحب الشرق.

وإجابة عن سؤال عن رأيها في الإسلام قالت بوضوح: إنني أحب الإسلام، ولولا أنني أحبه ما كتبت عنه أكثر من ثمانين كتابا، وقد وجدت فيه دين تسامح، وروحانية وتوقفت كثيرا عند

كلمات القرآن: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ (البقرة ٢٥٦). وقد قلت لمن وجهوا إليّ النقد: إنني أحب الرسول محمداً - صلى الله عليه وسلم -، وعندما سألتوني عن رأيي في غضب المسلمين بسبب رواية سلمان رشدي: آيات شيطانية قلت: لقد جرح سلمان رشدي مشاعر المسلمين. وتعرضت بسبب كلماتي هذه إلى حملة اضطهاد شديدة، ولولا أن الرئيس الألماني في ذلك الوقت كان يساندني لكانت الذئاب قد افترستني، ولكنني مع ذلك قضيت في هذه المحنة ستة شهور.

وفى كل مرة كانت تزور فيها القاهرة كانت تذهب لزيارة قبر القطب الصوفي الكبير ابن عطاء الله السكندري في المقطم.. ولأنها أقامت سنوات في تركيا وظلت بعد ذلك كثيرة التردد عليها، فقد زارت قبر جلال الدين الرومي مائة مرة كما تقول لأنها أحببت شعره الصوفي ووجدت فيه نداءات استجابت لها روحياً.

ولشدة إعجاب المثقفين في باكستان بها أطلقوا اسمها على شارع في مدينة لاهور.



وفى رأيها أن التشهير بالإسلام والمسلمين في الغرب قضية لها جذور وعمق تاريخي، ويمكن فهم الأسباب من كلمات (جلاد ستون) الزعيم السياسي البريطاني المعروف التي قال فيها: (لن تستطيع أوروبا أن تسيطر على دول الشرق، بل لن تستطيع أن تعيش في مأمّن ما بقي هذا القرآن حياً يُتلى)، وقد ظل هذا الموقف يتصاعد عبر الزمان إلى أن تبلور على يد المفكر الاستراتيجي الأمريكي صمويل هنتنجتون في نظرية صدام الحضارات، ولكن يجب ألا ننسى أن هناك كتابات أخرى تعبر عن الاحترام للإسلام، فالفيلسوف الألماني (شبنجلر) في كتابه (أفول الغرب) قال إن حضارة الإسلام حضارة جديدة أوشكت على الظهور في أروع صورة، والإسلام يملك اليوم أقوى قوة روحانية عالمية نقية.. والحقيقة كما قال (جاردنر): إن القوة التي تكمن في الإسلام هي التي تخيف الغرب. وكذلك نجد مفكراً كبيراً مثل (بول ديورانت) يقول: إذا حكمنا على العظمة بما كان للرجل العظيم من أثر في الناس، فلا بد أن نقول إن محمداً - صلى الله عليه وسلم - كان أعظم عظماء التاريخ.. ثم تقول: المشكلة تكمن في أن المسلمين مقصرون في حق أنفسهم، ولا يعرفون كيف يقدمون للعالم أنفسهم، وتاريخهم، وعقائدهم، وسياساتهم.. المسلمون لا يستخدمون وسائل الإعلام كما ينبغي.. ولا يجيدون فنون الدعاية والإقناع.. ولا يدرسون ما في الغرب من تيارات فكرية وسياسية واستراتيجية واقتصادية.. وأعتقد أن العولمة تمثل أحد المفاهيم الاستعمارية المخادعة.. وأرى أن على المسلمين أن ينهضوا، ويقدموا أنفسهم للعالم من جديد.



وفى حوار معها قالت أنا ماري شيملا: إن مشكلة العالم الإسلامي أنه لا يزال جامداً، وواقفاً عند النقطة التي كان عليها منذ قرون لم يتحرك، ولم يتطور، ولم يساير حركة التاريخ، ولذلك أصبح

المسلمون كيانا كبيرا من حيث العدد، ولكنهم ليسوا كيانا سياسيا، وليسوا تكتلا اقتصاديا، ولم يستطيعوا التوحد، ولذلك فإن كلامهم كثير وأفعالهم قليلة.. وأصواتهم عالية بدون تأثير.. وهذا معناه أن المسلمين حكموا على أنفسهم بالاعتراب.

وفى محاضرة لها في مكتبة مبارك فى القاهرة قالت: إن الذى يجب أن يعرفه المسلمون هو أن الاستشراق ليس عدوا للإسلام، ولكنه وسيلة جيدة لتعلم منهج وعقيدة الإسلام، ولذلك حين سألوني فى الخرطوم: هل أنت مستشركة؟ قلت: نعم.. أنا مستشركة.. وأفخر بذلك.. فالاستشراق نافذة للتفاهم بين الأديان والحضارات والثقافات. والإسلام عندى دين عميق فيه التوكل على الله، وفيه الخصوصية الروحية، وأنا دائما أضع أمامى عبارة المؤرخ (ديكنز) فى كتابه: (معالم تاريخ الإنسانية) التى قال فيها: (إن الإسلام ساد لأنه خير نظام اجتماعى وسياسى ظهر فى التاريخ).

وقالت أيضا: إننى أدعو المسلمين إلى إنشاء أقسام لدراسة الغرب دراسة متخصصة لما فيه من عقائد، وأفكار، وثقافات، وتاريخ قديم وحديث، والتعرف على ما يظهر فى الغرب من تيارات معاصرة، وبذلك يصبح لدى المسلمين أدوات الفهم للغرب، والقدرة على التعامل معه وعلى مواجهته أيضا، وأيضا يكتسبون القدرة على المقاومة لحماية أنفسهم من أن تسحقهم موجات التغريب التى تكتسح دول العالم، خاصة مع سيطرة الغرب بما لديه من تقدم تكنولوجى.

لقد أنفقت أنا ماري شيميل عمرها فى دراسة الفكر والتصوف الإسلامى، ومقارنة الأديان، وترجمة النصوص والأشعار الإسلامية.. ولذلك فإنها تعتبر فى ألمانيا وغيرها من الدول والمؤسسات الدولية (مرآة الإسلام وسفيرة الإسلام فى الغرب).. وقد أعلنت أكثر من مرة: أنا أحب الإسلام كثيرا، وسأظل أذاع عنه حتى وفاتى، مهما كانت هناك مقاومة عنيفة من جانب الغرب ضد الإسلام.. فإننى سأظل أجتهد.. وأجاهد.



أنا ماري شيميل لم تتزوج.

سئلت: ما ديانتك؟ فأجابت: الله أعلم.

فى عام ١٩٩٢ أقيم احتفال كبير فى ألمانيا لتكريمها باعتبارها صاحبة مدرسة فى الاستشراق ودراسة الإسلام وبمناسبة بلوغها سن السبعين، وألقى تلميذها البروفيسور يوحنا كريستوف بيرجل محاضرة عنها نشرها بعد ذلك فى كتاب بعنوان: (إن الله جميل يحب الجمال). قال فيها: إنها دائما تكرر ملاحظتها عن عدم اهتمام الدول العربية بدرجة كافية بما فى الدول الإسلامية غير العربية من مذاهب وأفكار وتيارات إسلامية، ولذلك تخلو المكتبة العربية من المراجع المتخصصة فى الآداب الإسلامية فى إيران، والهند، وباكستان، وتركيا، وإندونيسيا وغيرها، فهل هناك

خصام بين الدول العربية وبين هذه الشعوب الإسلامية يحول دون ترجمة آثارها وآدابها إلى اللغة العربية، بينما يهتم بها المستشرقون، ولهم السبق في اكتشاف هذه الآداب الإسلامية وترجمتها إلى اللغات الأوروبية، بينما ما زالت هذه الآداب مجهولة تقريبا للمثقف العربي؟! وتقول: إن عظمة الإسلام تظهر في قبوله لكل الأديان السماوية، وهي معجبة بأبيات الشعر التي قال فيها الصوفي الكبير محيي الدين بن عربي:

لقد صار قلبي قابلاً كل صورة	فمرعى لغزلان، ودير لرهبان
وبيت لأوثان، وكعبة طائف	وألواح توراة، ومصحف قرآن
أدين بدين الحب أتى توجهت	ركائبه، فالحب ديني وإيماني

وتقول: هذا الكلام قمة التسامح، وتعبير عن القلب الإسلامي الكبير الذي لا يضيق بأى إنسان.. ولا يعادى إنساناً بسبب عقيدته.. ويتعامل مع الإنسان على أنه إنسان.. ويفتح قلبه لكل إنسان مهما تكن عقيدته.. ولم أجد في كل ما قرأت مثل هذه الدرجة من التسامح ومحبة الإنسانية..



وأنا ماري شيمل لها تلميذ مصري مفتون بها.. ترجم بعض أعمالها.. وكان مرتبطاً بها.. هو الدكتور ثابت عيد الباحث في إحدى جامعات سويسرا، وكثيراً ما كان يسافر إلى ألمانيا لكي يلتقي بها.. وقد ترجم عن الألمانية مقال تلميذها المستشرق الألماني يوحنا كريستوف بيرجل عن حياتها وأعمالها، ويحكى بيرجل كيف بدأت علاقته بها، فيقول: تعرفت عليها في شتاء ١٩٥٦ في أنقرة، وكنت قد ذهبت إلى تركيا كطالب شاب بمنحة تبادل ثقافي، وكانت هي تدرّس هناك باللغة التركية - في كلية أصول الدين - تاريخ الأديان المقارن، والفن الإسلامي، فأصبحت أحد أفراد المجموعة التي تتلمذت على يديها، وكان بعض كبار المستشرقين الألمان ينظرون إليها في ذلك الوقت على أنها فتاة حالة، مفتونة بالشرق الإسلامي، ولو كانوا قد استمعوا مثلي إلى محاضراتها وقرأوا إنتاجها الغزير باللغة التركية لكانت هذه الغطرسة قد تبددت على الفور، لكن كبار المستشرقين الألمان لم يكونوا على علم باللغة التركية، وعندما صدر كتابها: (مقدمة في تاريخ الأديان المقارن) وكتاب: (سيرة الصوفي ابن الخفيف الشيرازي) في عام ١٩٥٥ أثبتت بهما أنها عالمة كبيرة، وأعلنت حبها للإسلام وللتصوف الإسلامي، ودائماً كانت تقول: لا أستطيع أن أبحث في موضوع لا أحبه، فالحب عندي شرط أساسي للبحث العلمي في أي موضوع، وكل موضوع أحبه يثمر عملاً مكتوباً.

ويقول تلميذها بيرجل: كانت شيمل تحب القطط، وكنا نراها عندما تغادر الجامعة في تركيا بعد انتهاء المحاضرة تنحنى على الأرض لترفع إحدى القطط وتضمها إلى صدرها، وبعد سنوات نشرت كتاباً بعنوان: (القطّة الشرقية) صدرت طبعته الأولى سنة ١٩٨٣ والثانية سنة ١٩٨٩..

وكان التشوق إلى الله يملأ قلبها، وهذا ما جعلها تتعلق بالشاعر الصوفي التركي جلال الدين الرومي مؤسس الطريقة المعروفة باسم (الدراويش) في مدينة قونيا بتركيا، وفي هذه المدينة كانت تتجه إلى قبر جلال الدين الرومي، وقد تحول إلى متحف يسوده الهدوء وتقضى فيه أوقاتا طويلة خاشعة تتأمل. واهتمت أيضا بدراسة الإسلام في باكستان والهند، وركزت أبحاثها حول الإسلام في هذه المنطقة فترة استمرت ٢٥ عاما كانت خلالها أستاذة كرسي مادة (الإسلام في الهند) في جامعتي هارفارد وماشوستس. وظلت تقول طوال حياتها إنها شعرت في أمريكا بالعربة الغربية، بينما وجدت الراحة في الشرق (موطن الروح والنور).

وهي حاصلة على عشرات الأوسمة والجوائز العلمية من مختلف أنحاء العالم.. من ألمانيا.. والولايات المتحدة.. وتركيا.. وإيران.. وباكستان.. ولقيت التكريم من الجامعات ومراكز الأبحاث ومن الدول أيضا.. ففي سنة ١٩٦٥ حصلت على وسام نجم القائد الأعظم أكبر وسام في باكستان، وفي سنة ١٩٨٣ منحتها الحكومة الباكستانية وسام هلال الامتياز، وفي سنة ١٩٨٩ حصلت على نوط الاستحقاق الكبير من الحكومة الألمانية، وفي سنة ١٩٩٣ حصلت على ميدالية جامعة تيبينجن تقديرا لأعمالها التي تدعم الفهم الصحيح للأديان، وفي سنة ١٩٩٥ حصلت على جائزة السلام أكبر جائزة في ألمانيا. وحصلت على أكثر من عشرين شهادة دكتوراه فخرية. وفي سنة ١٩٨٢ أطلق اسمها على شارع في مدينة لاهور في باكستان. وفي سنة ٧٢ أصدرت مجلة (فكر وفن) الثقافية باللغتين العربية والألمانية، وأصبحت رئيسا للجمعية الدولية لعلم الأديان المقارن من سنة ١٩٨٠ حتى سنة ١٩٩٠، وكانت رئيسا للمنتدى الألماني-الباكستاني، ورئيسا لجمعية إقبال في أوروبا، وعضوا فخريا في الجمعية الألمانية الشرقية، والجمعية الأمريكية لدراسات الشرق الأوسط، والجمعية الأوروبية للدراسات الإيرانية.. فهي أذن شخصية لها ثقل عالمي ومكانة علمية مما يجعلها بحق صوت الإسلام في العالم كله شرقا وغربا.



وفي حديث لها مع الدكتور ثابت عيد نشر في (مجلة أكتوبر) في عدد ١٠ مارس ١٩٩٦ أكدت أنا ماري شيميل استنكارها لسلوك الغرب تجاه الإسلام، ووجهت إنذارا شديد اللهجة إلى أعداء الإسلام، لأنهم على باطل، قالت فيه: إن الفكرة السائدة في الغرب بأن الإسلام يعادي المرأة فكرة خاطئة، بل إن في الغرب مفكرين يقولون: إن المرأة في الإسلام كائن بلا روح، ولكي نعرف كذب هذا الادعاء نعود إلى القرآن الكريم، وسوف نرى أنه يسوّى بين الذكر والأنثى، وبين المؤمنين والمؤمنات، ولم يفرق بينهما في مجال الفرائض الدينية، وإذا قيل: إن للمرأة نصف نصيب الرجل في الميراث فإن ذلك لسبب عملي، فالمرأة حين تتزوج تحصل على مهر مناسب، والزوج هو المسئول شرعا عن الإنفاق عليها، وهكذا تظهر العدالة في توزيع الأعباء والمسئوليات وفي النهاية

سنجد أن المرأة هي الراححة، كذلك ما يقال عن تعدد الزوجات في الإسلام، فالقرآن يعطى رخصة ﴿فَأَنكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَنِّي وَتِلْكَ وَرِيعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَدْلُوا فَوَاحِدَةً﴾ (النساء - ٣) نجد أولاً أن التعدد ليس واجبا أو فرضا ولكنه رخصة وهو مشروط بشرط العدل، ومجرد الخوف من عدم القدرة على تحقيق العدل يعنى عدم السماح بالتعدد. ومن الناحية العملية فإن وجود سيدات أرامل كثيرات في الحروب سبب يجعل التعدد لصالح المرأة ولحمايتها. ويجب أن نعلم أن الرجل في الجاهلية كان يحق له الزواج بعدد غير محدود من النساء، فجاء الإسلام وحدد العدد وجعل لهذا التعدد شرطا لازما وهو العدل، مما جعل بعض رجال الإصلاح في الفقه يقولون إن الزوجة الواحدة أفضل من الناحية الشرعية، لأن الرجل يصعب عليه أن يحقق العدل في مشاعره بين زوجاته.

أما عن عزل المرأة المسلمة وتحريم مشاركتها للرجال في المجالس، فتقول: إن ذلك ليس من الشريعة، ولكنه نتيجة تطورات اجتماعية وسياسية، ولن نجد آية في القرآن تفرض على المرأة الانعزال عن المجتمع، أو إبعادها عن أنشطة الحياة. وما حدث من فرض العزلة على المرأة جاء نتيجة أفكار لا وجود لها في القرآن، ونتيجة التفسير الشعبي الساذج للقرآن، والتفسير المتأثر بالأوضاع الاجتماعية والثقافية والسياسية في مجتمع من المجتمعات الإسلامية، أو نتيجة جمود العادات وتأثير حضارات أخرى غير إسلامية على بعض مجتمعات المسلمين. ففي الهند مثلا، وتحت تأثير الهندوسية لم يكن مسموحا للأرملة المسلمة بأن تتزوج مرة أخرى، وهذه ليست من أحكام الإسلام ولكنها من التعاليم الهندوسية، ولذلك بدأ مسلمو الهند في محاربة مثل هذه التأثيرات الغربية عن الإسلام. وهكذا يجب أن ننظر إلى كثير من الأمور من منظور اجتماعي وتاريخي.

وقالت: إننى أقول دائما للغربيين الذين يشوهون صورة الإسلام: إن الإسلام منح المرأة حق الاحتفاظ باسمها، وبما تملكه من مال قبل زواجها، وبما تكسبه بعد الزواج، وهذا يتضمن حق المرأة في أن تعمل وتكسب من أية مهنة أو تجارة، والمرأة في أوروبا لم تتوصل إلى حق الاحتفاظ بما تملكه من مال بعد زواجها إلا منذ فترة قريبة.

وتقول: إننى كمؤرخة للأديان أقف بإعجاب عند الآية ١٨٧ من سورة البقرة التي تحدد العلاقة بين الرجل والمرأة في إطار الزواج: ﴿هُنَّ لِيَاسٍ لَّكُمْ وَأَنْتُمْ لِيَاسٌ لَّهُنَّ﴾ واللباس يعنى الذات الأخرى، أو النفس الأخرى، وبذلك يكون معنى الآية أن الرجل والمرأة يكمل كل منهما الآخر، وأن كلا منهما هو النصف الأفضل للآخر، وأعتقد أنه يجب تسليط الضوء على هذه الآية عند الحديث عن مكانة المرأة في الإسلام، لأن هذه الآية تؤكد المساواة بين الرجل والمرأة بما لا يدع مجالاً للشك.



وتقول: إن ما يقال في الغرب من أن العقيدة الإسلامية عقيدة منحرفة، اتهام باطل وجهه مسيحيو القرون الوسطى إلى الإسلام. ومسيحيو القرون الوسطى اعتبروا الإسلام هرطقة مسيحية، بل إن بعض الأساطير في القرون الوسطى تقول: إن محمدا - صلى الله عليه وسلم - كاردينال مسيحي استاء لعدم اختياره بابا، فقام بالانفصال عن الكنيسة، وأسس لنفسه ديانة جديدة، وقد أثارت مثل هذه الكتابات الفزع من الإسلام ومن الرسول في نفوس المسيحيين العاديين في الغرب، لأنهم اعتقدوا أنه ليس من الممكن أن تظهر ديانة سماوية أخرى بعد المسيحية، وهذا الرأي ما زال شائعا بين الكثير من الأوساط المسيحية حتى يومنا هذا. ومن المؤسف أن مثل هذه الأفكار الخاطئة تبقى إلى وقت طويل في ذاكرة الأفراد، وفي (الوعي الجماعي) و(اللاشعور الجماعي) في الغرب، ويمكن إحيائها في أي وقت.



هل انتشر الإسلام بحد السيف؟.. وهل الإسلام دين عنف؟

تقول أنا ماري شيمل: هذا ادعاء شائع في الغرب، ويتجاهل القائلون به حقيقة ثابتة، هي أن جميع الديانات استخدمت الحديد والنار في حروبها الدينية، بما في ذلك المسيحية. والفتوحات الإسلامية تمت لأسباب ودوافع سياسية بحتة، ولم تحدث لنشر ديانة الإسلام. وعلى سبيل المثال فإن القائد الإسلامي الكبير تيمور (توفي سنة ١٤٠٥) دمر دولة المسلمين من الترك والفرس والعرب، ولم يفعل ذلك لنشر الإسلام، لأن الذين حاربهم كانوا مسلمين، ولكنه حارب لأسباب سياسية، من أجل تدعيم سلطته. ومثل هذه الأحداث، وخاصة فتوحات تيمور كان لها أثر كبير في أوروبا، وساهمت في تعميق وتثبيت فكرة العنف في الإسلام. مع أن الإسلام لم ينتشر بحد السيف في شبه القارة الهندية، وماليزيا، والصين وغرب أفريقيا، بل انتشر عن طريق الصوفيين والتجار الذين قدموا العقيدة الإسلامية بطريقة بسيطة لهذه الشعوب.

وعلى العموم حديث الدكتورة أنا ماري شيمل طويل، وعميق، ومهم جدا، وأتمنى أن تهتم وزارة الأوقاف، والمجلس الأعلى للشئون الإسلامية، وجامعة الأزهر بالعودة إليه والاستفادة بما فيه من دفاع عن الإسلام على أساس عقلاني وعلمي ومستندا إلى الوقائع التاريخية دون حماسة أو بلاغة خطابية، ولذلك فإن الحجج التي تسوقها تصل إلى العقل وتقطع الطريق على من يوجه اتهامات ظالمة إلى الإسلام.

وهي تقول في هذا الحديث: إن الكتابات الغربية في الفترة ما بين ١٥٢٩ و١٦٨٣ تدل على أن وصول جيوش الأتراك إلى قلب أوروبا وحصارهم فيينا عاصمة النمسا سبب صدمة شديدة للأوروبيين، ومنذ ذلك الوقت سعى الغربيون إلى إلصاق كل الصفات السلبية والقييحة بالمسلمين والأتراك،

وأحيانا يراودني إحساس، وقد يكون هذا إحساسا شخصيا، بأن هذا الخوف الغريب من اقتحام الأتراك لفيينا ما زال مسيطرا على الألمان بطريقة لا شعورية، وأن ذلك يظهر بوضوح في سلوكهم تجاه العمال الأتراك في ألمانيا، وربما يكون الألمان أنفسهم لا يدركون هذه الحقيقة، ولكن هذا الحدث التاريخي المخيف بحصار فيينا ترك أثرا شديدا في أعماق الأوربيين، وما زالوا يحتزنون ذكريات هذه الأيام ويتوارثونها حتى يومنا هذا، حتى بعد أن اختلفت الظروف.. وزال دواعي الخوف.. وهذا شيء مؤسف حقا، لأننا يجب أن نضع في اعتبارنا أن الأتراك المسلمين كانوا بعد ذلك من أقرب أصدقاء ألمانيا، وكان لفظ (ألماني) يمثل بالنسبة للأتراك قيمة مهمة عزيزة عليهم، ولذلك يحزنني جدا أن أرى السلوك السلبي للألمان تجاه الأتراك، وكثيرا ما تحدثت مع عمال بسطاء منهم، فأجدهم في غاية التأثر والشعور بالإحباط من المعاملة غير الطيبة التي يلاقونها من الشعب الألماني وهو الشعب الذي يعتبر بالنسبة لهم الشعب المثالي.

وهل الإسلام دين الشهوات الحسية حتى إن وصف الجنة ذاته يجسد ذلك؟

تقول: إن هذا القول راجع إلى الترجمات الأوربية في القرون الوسطى لبعض آيات القرآن التي تصف الجنة على أنها حديقة كبيرة، مملوءة بالخور العين، وأصناف المتع الحسية، وقد صدمت هذه الأوصاف الأوساط المسيحية المتمسكة بالتبتل والتطهر والروحانيات، كذلك صدم هذه الأوساط أن نبي الإسلام - صلى الله عليه وسلم - لم يكن عزباً مثل المسيح، ولكنه مارس حياة زوجية طبيعية، وكان المتدينون من المسيحيين في القرون الوسطى يعتبرون هذه الأمور مما لا يليق بالإنسان الكامل، المؤمن، المحب لله. وساهم ذلك المفهوم في نشر صورة الإسلام الشهوانى في القرون الوسطى، وما زالت هذه الصورة موجودة حتى عصرنا الحالى، ومنذ نشر ألف ليلة وليلة في أول ترجمة فرنسية بقلم جالان Gallan في القرن الثامن عشر، التي ساهمت بما فيها من جو خيالى في تأكيد صورة الإسلام الشهوانى في الكتابات والفنون الغربية، وظهر ذلك في الفنون التشكيلية في القرن التاسع عشر وكيفية تصوير المرأة الشرقية والحريم وهكذا.. وهناك مراجع أوربية كثيرة عن الشرق في الفنون الغربية أبرزت المناظر الجنسية الشهوانية وهي من خيال الرسامين الذين لم يذهبوا إلى الشرق على الإطلاق، ولكنهم استغلوا الشرق لكي يرسموا ما لم يكن مسموحا لهم بأن يعبروا عنه في رسوماتهم عن البيئة الغربية. وما دامت هذه الصور عن الشرق فهي مباحة، وقد أدى ذلك إلى زيادة تأكيد صورة المسلمين على أن الشهوات الحسية هي التي تستغرق تفكيرهم في الدنيا والآخرة.

والإساءة إلى الإسلام كانت شائعة في القرون الوسطى ويظهر ذلك في الشعر الفرنسى من القرن الحادى عشر إلى القرن الرابع عشر، كما يظهر في الأدب الإنجليزى والاسكتلندى، حتى إنهم حرفوا اسم النبي (محمد) إلى Mahaund وهو اسم يتكون من مقطعين، والمقطع الثانى haund

يعنى (كلب)، وفى نصوص أخرى نجد أن اسم النبى محمد - صلى الله عليه وسلم - تحول إلى اسم معناه الشيطان، وحتى فى الأشعار الألمانية الرومانسية سنة ١٨٠١ نجد اسم محمد - صلى الله عليه وسلم - وقد تحول إلى Mahom (ماحوم) وإشارات إلى أن المسلمين يعبدون أصناما ذهبية لمحمد - صلى الله عليه وسلم - .. وهكذا.. لا يوجد شىء سلبى لم يلصقه الغربيون بالإسلام، من القرن الثامن حتى القرن العاشر، وازدادت مع بداية الحروب الصليبية. وفى نوفمبر ١٩٩٥ تحدث الكتاب الغربيون بفخر عن ذكرى مرور ٩٠٠ سنة على انطلاق أول حملة صليبية، مما يدل على أن تلك الحقبة مازالت حية فى عقول الغربيين!



وهل الإسلام يحمل العداء للغرب ؟

تقول أنا مارى شيملى: إن هذا صحيح جزئيا، لأن المسلمين عانوا طويلا من الاستعمار الغربى فى القرنين الماضيين، وقد أصاب المسلمين الفزع عندما جاء إليهم المبشرون الإنجليز وسعوا إلى تشكيكهم فى عقيدتهم الإسلامية، وأشعروهم بأنهم بشر من الدرجة الثانية، ومن السهل أن نلمس الإحساس بالاستياء والكراهية تجاه الاستعمار، وتجاه التبشير المسيحى لدى المسلمين فى الهند، وينطبق ذلك على بقية الشعوب الإسلامية أيضا. أما فى العصر الحديث فإن الخوف لدى المسلمين من التكنولوجيا الحديثة والتصنيع وأسلوب الحياة الأمريكية، وهو استياء موجه إلى الجوانب السلبية فى الحضارة الغربية، كما يراها المسلمون، مثل المبالغة فى التحديث، والإباحية الجنسية، والمبالغة فى فرض الفكر الغربى وأسلوب الحياة الغربية على المسلمين، كل ذلك يؤدى إلى ظهور أعراض الحساسية لديهم. ومع ذلك فإن من الخطر أن يمتد رفض المسلمين للمظاهر الخارجية السلبية للحضارة الغربية فيرفضوا أن يتعلموا من الغرب ما وصل إليه من مناهج البحث العلمى، والدقة العلمية، والتكنولوجيا الحديثة. وكثير من المصلحين الإسلاميين نبهوا إلى ذلك، مثل محمد إقبال فى باكستان، وقالوا إن من الممكن أن يظل المسلم مسلما وفى الوقت نفسه يأخذ من الغرب العلوم الحديثة والتكنولوجيا، وهذا موقف إيجابى، أفضل من الموقف الذى لا يرى فى الغرب سوى الجوانب السلبية فقط، وهذا هو ما يقود إلى الأحكام الخاطئة، والتصورات المشوهة عن الغرب، تماما مثل التصورات المشوهة عن الإسلام فى الغرب.. فالمشكلة على الجانبين سببها الجهل..



وكيف فهمت أنا مارى شيملى (الجهاد) فى الإسلام ؟

تقول: إن الذين يتحدثون عن الجهاد فى الإسلام على أنه الحرب المقدسة، يستخدمون اللفظ المسيحى المرتبط بالحروب الصليبية، وتعبير (الحرب المقدسة) ليس له علاقة بالإسلام، وترجمة الجهاد بهذا التعبير تضايقتنى، ويحزننى أكثر أن بعض المسلمين أصبحوا هم أيضا يتحدثون عن

الحرب المقدسة، بينما الجهاد أصلاً معناه بذل كل الطاقة، والتعب في سبيل تحقيق هدف معين. والجهاد في سبيل الله معناه الاجتهاد والعمل والجهاد لمرضاة الله، وقد يتضمن ذلك محاربة من يحاربون الإسلام والمسلمين.

وتقول: إن البعض يتحدث عن الإسلام وكأنه يوجد إسلام واحد، بينما الإسلام مثل المسيحية يشتمل على تيارات متباينة، وكما أن في المسيحية اختلافات بين الكنيسة الأرثوذكسية الروسية والكنائس الأمريكية الحرة، فإن هناك اختلافات بين المسلمين باختلاف ثقافتهم وإن كانوا جميعاً يؤمنون بأنه لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله - صلى الله عليه وسلم -. فالأساس واحد، والفروع تتنوع بتنوع الشعوب والأجناس والثقافات..



وهي تقول أيضاً: إن ما يقال في الغرب من أن الإسلام يعادى العلم ليس صحيحاً، ولكنه ينطبق على العصور المتأخرة فقط، ما بعد سنة ١٢٥٨، بعد تدمير المغول لبغداد. وإسهامات العرب العلمية تُكذَّب هذا الادعاء، فالعرب هم الذين وضعوا أسس العلوم الطبيعية في أوروبا، من خلال ما نقلوه عن اليونان في العصور الوسطى من ناحية، وتطويرهم لهذه العلوم من ناحية أخرى. فما قدمه الرازي وابن سينا في علوم الطب من إنجازات كان يدرس في جامعات أوروبا حتى عصر النهضة، وخاصة المؤلفات الخاصة بطب العيون، وكذلك المؤلفات الخاصة بالرياضيات، وعلم الفلك.



ومن كتابات أنا ماري شيميل نلمس أنها فهمت الإسلام فهماً صحيحاً، وقدمته للغرب بموضوعية ونزاهة علمية يجب أن تكون محلاً لتقدير العالم الإسلامي، لأنه لم يظهر بين المسلمين من خاطب الغرب خمسين عاماً فيما يشبه الجهاد، أو التجنيد لتوضيح حقائق الإسلام كما فعلت هي. وهي تنفي عن الإسلام الاتهامات الظالمة المتراكمة في الغرب منذ قرون، وقدمت في أكثر من ٨٠ كتاباً جهداً علمياً خارقاً لتوضيح حقيقة العقيدة الإسلامية، بدراساتها المتعمقة التحليلية المحايدة للقرآن، والفقه، والتاريخ الإسلامي، وتاريخ الأديان الأخرى، وبمعايشتها للإسلام في مواطنه في أنحاء العالم من تركيا وإيران إلى الهند وباكستان، وقد قرأت باللغة العربية التراث العظيم للعلوم والفلسفة والتصوف في الحضارة الإسلامية في مراحلها المختلفة، بما فيها من مراحل ازدهار، ومراحل انحطاط، ومن مراحل تقدم ومراحل تخلف، ووضعت يدها على الأسباب الحقيقية لتخلف المجتمعات الإسلامية بعد أن كانت للحضارة الإسلامية قيادة الحضارة العالمية.

تقول: إن الإسلام يقرر بوضوح حرية الإرادة للإنسان، ويقرر في نفس الوقت مسئولية كل إنسان في الدنيا والآخرة عن كل ما يفعل.. والله كرم الإنسان كما جاء في الآية (٧٠) من سورة

الإبراء) ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾، وأعطاه الأمانة كما في سورة (الأحزاب الآية ٧٢) ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ﴾.

كما كانت تقول: إن إقبال كان نموذجاً للمفكر الإسلامي الذي استطاع مخاطبة الناس بسهولة بالشعر الذي يسهل حفظه لدعوة المسلمين إلى العمل بدلا من مفهوم التوكل على أنه الاستسلام للكسل. كان إقبال يدعو إلى إسلام ديناميكي، إسلام يكلف الله فيه الإنسان بأن يعمر الأرض، ويأخذ بالعقل والتكنولوجيا ومعهما الإيمان، فالعلم والعمل والإيمان ثلاثية تمثل حقيقة الإسلام، وبتفاعلها معا يتقدم المجتمع الإسلامي نحو المستقبل.

وكانت تقول: إن الحب يجعلني أرى بألم بالغ خطايا المحبوب، ونحن الذين قضينا حياتنا في دراسة عالم الإسلام شديد التنوع، نحاول تقديم جوانبه الإيجابية إلى جمهور لا يكاد يعرف شيئا عن الإسلام وعالمه. ونحن نشعر بالصدمة عندما نرى التطورات التي حدثت في العقود الأخيرة من القرن العشرين في بعض أجزاء العالم الإسلامي، فإذا كانت التحية في الإسلام هي (السلام) فإننا نرى ظهور اتجاه مخيف إلى التشدد والتضييق في المواقف العقائدية والتشريعية في الوقت الحاضر، وكان الاعتقاد في البداية أن هذا الاتجاه لمقاومة التأثير الغربي المتزايد على العالم الإسلامي، ومن أجل تخليص الإسلام من التأثير بعوامل أجنبية، لكن المسألة لا تبدو كذلك، فإن الذين يجب عليهم اتباع الطريق الذي رسمه النبي محمد - صلى الله عليه وسلم - لا يفعلون ذلك، ولا يتبعون تعاليمه اتباعا صحيحا، فنحن نواجه تعبيرا عن سياسة القوة، وأيديولوجيات تتخذ الإسلام شعارا لها، بالرغم من أنها تنطوي على أفكار ودعوات ليس لها أساس صحيح في الإسلام، وفي أصول العقيدة الإسلامية. فإني - مع طول دراستي للإسلام - لم أجد في القرآن، أو في الحديث، أية دعوة إلى الإرهاب، أو احتجاز الرهائن، ولم أجد ما يشير ولو إشارة إلى مجرد السماح أو القبول بمثل هذه الأفعال، ووجدت دائما تجسيدا للقاعدة الذهبية التي تقول: (عامل الناس بما تحب أن يعاملوك به) ووجدت أن هذه القاعدة الذهبية ركن مهم في علم الأخلاق الإسلامي، فليس هناك إنسان عاقل يمكن أن يؤيد أعمال الإرهاب، في أي مكان على الأرض، وأيضا كانت عقيدة مرتكبيها، وسوف نكون - نحن المستشرقين - أكثر الناس سعادة حين تلغى أحكام الإعدام، وتلغى أيضا أحكام السجن على أصحاب الآراء المخالفة والناقدة؛ ولكن يبدو أن كثيرين من الأصوليين المتطرفين ينسون أن القرآن نبه إلى أنه (لا إكراه في الدين) في سورة البقرة (آية ٢٥٦) وأن النبي - صلى الله عليه وسلم - حذر من الحكم بالكفر على أحد من الناس. وشدد في التحذير من أن يُكفر الناس بعضهم بعضا.. ويحاول الأصوليون المتطرفون أن يجذبوا أنصارا لهم من بين الشباب الحائر الذي يعاني من البطالة، وأن يعملوا على تعبئة مشاعرهم ببعض الشعارات والتعبيرات، بعضها كلمات حق يراد بها باطل وأكثرها ليس من الإسلام أصلا. والإسلام بذلك يتعرض لإساءة استخدامه لتحقيق أهداف سياسية تختلف عن الأهداف الحقيقية

للإسلام الصحيح.. هؤلاء الأصوليون المتطرفون يقدمون الإسلام في صورة كاريكاتورية كما قال الطاهر بن جلون، ويساندون مذهباً سياسياً لم يسبق أن كان له وجود من قبل في العالم العربي الإسلامي.



على الجانب الآخر تنبيه أنا ماري شيميل إلى أن صورة الغرب أيضاً مشوهة في الإعلام في معظم البلاد الإسلامية، ولذلك فإن التفاهم من الجانبين، وتوضيح الأمور من أهم الواجبات الآن. وتقول إن الغريب أن معرفة المسلمين أنفسهم بتاريخهم محدودة، وما حققوه من منجزات في مناطق عديدة من العالم الإسلامي مجهولة بالنسبة لهم، والمتعلمون الليبراليون أيضاً معرفتهم محدودة بما تحقق في أنحاء مختلفة من العالم على يد المسلمين، ولذلك فإنهم يحتاجون إلى من يذكرهم بأسلوب هادئ بالتقاليد العظيمة لحضارتهم التي يبدو أنها أصبحت حضارة منسية حتى بالنسبة للمسلمين.. هذه الحضارة العظيمة تم تجميدها وإبعادها عن التطور عدة قرون، مع أن هذه الحضارة الإسلامية إذا تحققت لها البعث بثورة صحيحة، وإذا آمن أصحابها بأنها قابلة لمسايرة تطورات العصر، فإنها ستكون هي الطريق إلى مستقبل جديد للعالم الإسلامي.

وتقول: إن المسلمين يحتاجون إلى الأسلوب الهادئ لتصحيح المفاهيم المشوهة، ولا يحتاجون إلى القسوة التي قد تثير فيهم ردود فعل سلبية، وقد تذكرهم (بالاستعمار الثقافي).

وتقول لتأكيد احترام المسلمين للمرأة: لقد دعنتى كلية الشريعة بجامعة أنقرة لشغل كرسي الأستاذية لتاريخ الأديان فيها، ولتدريس تاريخ الكنيسة، وتاريخ العقائد، وكنت في ذلك الوقت سيدة شابة غير مسلمة، في حين لم يكن في أية جامعة ألمانية كرسي أستاذية تشغله سيدة، ونحن - في الغرب - ننسى الأهمية التي يُوليها القرآن لكل من المسيح (روح الله)، وأمه العذراء، والمسلمون يحملون لهما الاحترام والتبجيل.

والإسلام - كما تقول - دين السلام. والسلام هو عملية النمو الحيوي التي يجب أن يؤمن بها كل إنسان، ولذلك نجد أن (الجهاد) عند المتصوفين المسلمين هو جهاد النفس وتطهيرها من صفاتها السيئة. وجهاد النفس هو الطريق للوصول إلى الله، فإذا نجح إنسان في الوصول إلى (السلام) داخل نفسه، فإنه يصبح قادراً على تحقيق السلام في العالم.



وتقول أنا ماري شيميل: ربما يرى البعض أن الصورة التي أرسّمها للإسلام صورة مثالية بعيدة عن الواقعية السياسية، غير أنني تعلمت، وأنا باحثة في الأديان أن المقارنة ينبغي أن تكون بين النظائر، أي بين المثالية والمثالية، ولا تكون المقارنة مع الصورة المشوهة الناشئة عن الضعف البشري والانحراف. وأن معرفتي للإسلام مستمدة من البحث عشرات السنين في الآداب والفنون الإسلامية،

ومن معاشرة الأصدقاء المسلمين من طبقات الشعب في جميع أنحاء العالم الذين استقبلوني في بيوتهم بود بالغ، وساعدوني على معرفة حضارتهم معرفة دقيقة، وإذا أردتم نموذجاً للتسامح الإسلامي فتذكروا السيدة التركية (مولودة جنتش) التي تعيش في (سولينجن) بألمانيا، فقد أعلنت عفوها عن قتل أسرتها، هذا العفو هو روح الإسلام. وإن تقبل الطرف الآخر هو الأساس لكل حوار، وينطبق ذلك على علاقة الغرب بالعالم الإسلامي، خاصة أن الإسلام أصبح يصور على أنه العدو الجديد للغرب - نظرية صمويل هنتنجتون - بعد انتهاء المواجهة بين الكتلتين الغربية والشرقية، وإنني على يقين بأن الشعوب يمكنها أن تتحاور على أساس احترام كل طرف للطرف الآخر دون أن يعنى ذلك ضرورة إزالة الخلافات بينهما، بل السعى إلى تجاوز هذه الخلافات هو الأهم.

وأجمل ما قالته أنا ماري شيميل: إن وسيلتها للحديث عن الإسلام ليست بإصدار البيانات، أو بالظهور المسرحي، ولكنها تؤمن بأن المياه التي تسير سيرا هادئاً وباستمرار قادرة مع الزمن على أن تذيب الحجر الصلب.

وكانت تحب أن تكرر أبياتاً من شعر إقبال تقول: لله الشرق، ولله الغرب، والشمال والجنوب. السلام في راحتيه.. وهو الوحيد العادل.. ويريد العدل للجميع.. فلتبارك من أسمائه الحسنى اسم السلام.



كانت أنا ماري شيميل مهتمة بالدفاع عن التصوف الإسلامي المعتدل، ولها دراسات ومحاضرات كثيرة للتعريف بالتصوف، والصوفية، وقد ترجم الأستاذ ثابت عيد مقالاً لها عن التصوف نشرته في مجلة du السويسرية في صيف عام ١٩٩٤.

وقال ثابت عيد في تعليقه على المقال: إن شيميل تختلف في معالجتها للإسلام عامة، وللتصوف خاصة، عن الغالبية العظمى من المستشرقين، لأن ما يربطها بالإسلام صلة حب، أما الغالبية العظمى من المستشرقين فيربطهم بالإسلام علاقة عنصرية استعمارية. والحب نور يكشف المحاسن والإيجابيات، بينما العنصرية لا تبحث إلا عن العيوب والمساوئ، ولا ترى - بل لا تريد أن ترى - المحاسن والإيجابيات.

وأشهر من تخصص في دراسة التصوف الإسلامي من المستشرقين هم: السويسري فريتز ماير، والفرنسيان هنري كوربان، ولويس ماسينيون، والبريطاني نيكلسون. ولم تكن رؤيتهم للتصوف الإسلامي موضوعية، حتى إن هنري كوربان رأى أن التصوف الإسلامي ليس سوى عودة إلى عقيدة التثليث المسيحية، ورأى ماسينيون أن التصوف الإسلامي نتاج الفلسفات الفارسية ولم يكن نتاج العقلية العربية. أما أنا شيميل فترى أن التصوف الإسلامي نابع من روح إسلامية، ومن البيئة

العربية الإسلامية التي تفاعلت مع حضارات وثقافات الشرق والغرب دون استعلاء أو نفور. وخالصة الصوفية، أنها الفناء في الله. والغريبيون يصورون المتصوفين المسلمين في صور غريبة، فيصورون الصوفي مرة في صورة فقير يأتي بكرامات عجيبة، أو درويش جوال، أو أشعث أغبر كما في ألف ليلة، أو في صورة مجذوب يدور حول نفسه ويطوح رأسه وذراعيه. بينما التصوف الحقيقي حركة روحية ظهرت في أرض إسلامية، واشتق الاسم من رداء الصوف المتواضع الذي كان يرتديه الصوفي علامة على الزهد في زخرفة الدنيا، والبعد عن المباهاة بالمظهر، والتمسك بجوهر: المبادئ الأخلاقية التي جاءت في القرآن والأحاديث، والاستعداد في كل لحظة للقاء الله والحساب على كل ما فعلوه في دنياهم. والقرآن هو عالمهم الخاص الذي يعيشون فيه ويستلمون منه معتقداتهم، وكانت رابعة العدوية (المتوفية سنة ٨٠١م) هي التي أدخلت فكرة الحب الإلهي الطاهر في الفكر الصوفي، وأرست مبدأ الصلة بالله على أساس الحب وليس أملا في ثوابه أو خوفا من عقابه، وصار الحب بعدها من أساسيات الفكر الصوفي. وصارت المجاهدة الدائمة للنفس الأمارة بالسوء هي الجهاد الأكبر، والوسيلة لذلك ذكر الله دائما وفي كل حين. وشيخ الطريقة الصوفية هو المرشد الروحي، والخلوة هي الوسيلة لصفاء النفس وتخلصها من الأفكار الشريرة، وقد لعبت الطرق الصوفية دورا هاما في نشر الإسلام في مناطق عديدة مثل الهند وأفريقيا، حيث كان الصوفية يدعون إلى المبادئ البسيطة للإسلام وإلى حب الله ورسوله دون التطرق إلى مسائل دينية معقدة أو الخوض في مشاكل فقهية دقيقة. ومع انتشار الإسلام دخل فيه أهل ثقافات متعددة تأثروا بالإسلام وأثروا في الفكر الإسلامي وفي التصوف، وبذلك ظهر النظام الهرمي المعقد للجماعات الصوفية، وظهر تقديس الأولياء والتعلق بالأضرحة وغير ذلك من عادات غير إسلامية وافدة من ثقافات أخرى. وظهر بعد ذلك صوفية الحب، كما ظهرت فكرة المعراج الصوفي أو الطريق إلى الصفاء.

واهتمت أنا ماري شميل بدراسة شخصيات المتصوفة الكبار أمثال رابعة العدوية، والحلاج شهيد الحب الإلهي، وابن عربي صاحب نظرية وحدة الوجود التي أثرت في حركة التصوف في الغرب، وسنائي الغزنوي، وفريد الدين العطار، وجلال الدين الرومي. كما اهتمت بدراسة أثر الفكر الصوفي في الثقافة الإسلامية وخاصة في تركيا، والهند، وإيران، وعلى رغم ما لحق بالتصوف من بدع ومنكرات إلا أن التصوف الحقيقي النقي - في رأي أنا ماري شميل - أسهم في تعميق الرسالة الأساسية للإسلام وهي عبادة الله الواحد الأحد. أسهم منشدو الصوفية في تطوير اللغات الشعبية في أندونيسيا وغرب أفريقيا، وعرسوا قواعد السلوك والأخلاق الإسلامية الصحيحة في مناطق واسعة.

وقد تركت المستشرقة العظيمة عشرات الكتب والأبحاث، كما تركت مئات من تلاميذها في ألمانيا وغيرها من الدول التي كانت تحاضر في جامعاتها. وقامت بما لم تقم به المؤسسات

الإسلامية للدفاع عن الإسلام وإظهار ما فيه من قيم أخلاقية وإنسانية وروحية تجعله جديرا باحترام الغرب.



هذه هي المستشرقة العظيمة التي عرفت الإسلام حق المعرفة، وتفرغت لدراسته أكثر من ستين عاما، وعبرت عن احترامها للعقيدة والمبادئ الإسلامية، وعن حبها للمسلمين، واستطاعت التفرقة بين المسلمين والجماعة محدودة العدد من المتطرفين والإرهابيين الذين لا يعبرون عن حقيقة الإسلام.. وهي بحق - كما قيل عنها - دائرة معارف، عاشقة لعلمها، ويصعب إحصاء مؤلفاتها باللغات الألمانية، والإنجليزية، والتركية..

وبعد لقاءات متعددة معها وأحاديث طويلة وصريحة أحسست أن روحها تحلق مع القيم السامية للإسلام، ولست أن روح التصوف تمكنت منها فأصبحت هي أيضا من كبار المتصوفة، بعد أن تعمقت في دراسة التصوف الإسلامي في مختلف البلاد والعصور الإسلامية، وعاشت الحلاج، وابن عربي، ورابعة العدوية، وإقبال، وجلال الدين الرومي، والمثنوي، وغيرهم، وغيرهم، حتى أصبح التصوف رسالتها في الحياة. ورأت أنه ركن أساسي في التدين الإسلامي لأنه الحب بمعناه الواسع.. حب الله.. وحب الناس.. وحب الطبيعة.. وحب الأشياء.. وحب الحيوان.. وحب كل ما خلق الله.. فكل ما في الكون تجليات القدرة الإلهية.. وعبرت عن ذلك بقولها: إن التصوف هو لب الدين الإسلامي وهو إطار الإسلام كذلك.

وحين سئلت: إذا كنت تحبين الإسلام كل هذا الحب فلماذا لم تعتنقي الإسلام؟ أجابت: هذا سؤال محرج، لا أعرف كيف أجيب عنه.

وحين سئلت: إذن فما ديانتك؟ قالت: الله أعلم!

إنني شخصا أقرأ الفاتحة على روحها كثيرا وأدعو لها جزاء ما قدمت للإسلام.